تجانس الرؤية والدلالة في شعر شكيب أرسلان

ينتظم مفهوم الرؤية في هذه القراءة مجموعة من التصورات التي تحاول الكشف عن نظرة الشاعر للحياة والقضايا الذاتية والحضارية، وعن المستوى الفكري الذي يصدر عنه في تشكيل قصائده في علاقتها - أي الرؤية - بالدلالة الشعرية التي تتأسس على مجموعة من المكونات المضمونية، كالتغيير والجهاد والإصلاح.

بقلم: د. سعاد عبدالله الناصر
المغرب

أصدر شكيب أرسلان ديوانه استجابة لمجموعة من العوامل التي تدخل في سياق رؤية معينة لوظيفة الشعر انطلاقاً من موقف الشاعر من الواقع الحضاري المعيش آنذاك. ومن أهم تلك العوامل، كما يذكر الشاعر نفسه، اعتبار الشعر وثيقة تاريخية وحضارية شاهدة، يقول في هذا المجال: «بعض هذه القصائد متعلق بوقائع تاريخية مشهورة، وبعضها متضمن لمبادئ سياسية مأثورة فنشرها حصة من التاريخ، يتميز فيها من اعتدل عمن اعتدى، ويعرف من ضل ممن اهتدى، فلم يزل الشعر وهو الخيال المجسم أحسن قيد للحقائق، ولم تزل الوقائع التاريخية تأخذ من الوزن والقافية أثبت المواثق، وكم من واقعة تاريخية نشدها المؤرخون في أقوال المنشدين، وكم من رجل لم تخلده التواريخ وجعله الشعر من الخالدين»[1].

وهذا العامل الذي أدى به إلى جمع شعره ونشره ينسجم مع ما ذهب إليه في بعض القصائد (ص٨٤).

لرب بيت يستقل بجملة
تغني عن التاريخ في صفحاته

الشيء الذي يكشف عن رؤية الشاعر لوظيفة الشعر، وهي وظيفة تجعل منه شهادة مثبتة في عروة الواقع والتاريخ، وتوحي بمفهوم عميق للخطاب

الشعري عنده يرتكز على وعي مكثف بأهمية الكلمة الشعرية ودورها ومسؤوليتها. فهو، أي الشعر، ليس ترفاً أو متعة جمالية، وإنما هو مسؤولية حضارية. يقول الشاعر عن ذلك (ص ٢٥):

أرى جملة في صفحة الكون لا تقرا
تخللها برد اليقين ذكت جمرا
هي النار في الأحشاء لكنها هدى
لمن كان لا يرضى بإيمانه الكفرا
على ضوئها سار الأئمة قبلنا
وهزوا على الأفلاك ألوية حمرا
وكم شاهدوها بالحجاز .. ونورها
يضيء بأعناق الأيانق بصرى
ولولا سناها ما درى ذو بصيرة
أقلبا حوى بين الجوانح أم صخرا

وهذه الرؤية الواضحة لوظيفة الشعر تتعانق مع الدلالة التي تشع من القصيدة لتنبي عن الجذع الذي يتفرع عنه ذلك التعانق وهو النص القرآني في قوله تعالى: ﴿ والشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾ [الشعراء].

فمن هذا المفهوم القرآني للشعر ووظيفته تفرعت رؤية الشاعر. وإذا كان النص القرآني يشترط شرطاً معيناً لقائل الشعر وهو الإيمان كي تنتفي الغواية وتشع المسؤولية، فإن النص الشعري السابق يشترط الشرط نفسه. فالشعر في نظر الشاعر نار تحرق ولكن إذا تخللها برد اليقين فإنها تضيء. وهي رؤية كما قلنا ترتبط أساساً بوظيفة الشعر ودوره الحضاري وتجانسه مع فكر أرسلان الإصلاحي والدلالات المشعة عنه.

ومن تجليات هذه الرؤية ما نراه في رثاء الشاعر لأهل العلم والقلم والشعر، كقوله في رثاء أحد العلماء:

ولا غرو كان فاجعاً عم رزؤه
فموت رجال العلم موت العوالم

☆ يرى شكيب أرسلان أن الشعر وثيقة تاريخية وحضارية شاهدة ..

مصابيح في الدنيا إذا هي أطفئت
دجى الناس في ليل من الجهل قاتم

فالشاعر والأديب والعالم بالنسبة لأرسلان يحملون مسؤولية حضارية ضخمة: مسؤولية اجتماعية وسياسية وتاريخية.. تجعل منهم مجاهدين في ميادين متعددة، فهم يحملون السيف لمقارعة التخلف والظلم والشر والفساد أينما كانوا، ولذلك نجده يقول في رثاء أحمد شوقي مبيناً مسؤولياته الكثيرة (ص ٨٤):

وإذا سألت عن الجهاد فإنه
منذ الحداثة كان في سرواته
كالسيف في أوطانه ومضائه
والليث في وثباته وثباته
ما حل بالإسلام حيف مصيبة
إلا وكان بها لسان شكاته

ومنها:

كانت قصائده هي الصوت الذي
سرّى عن الإسلام ثقل سباته

والاهتمام بالأمة الإسلامية جمعاء والانغماس في قضاياها والانفعال بأحداثها أضفت على خطاب شكيب الشعري ظلالاً من الصدق والحرارة رغم بعض التقريرية والنغمة الخطابية التي تتخلل أبياته. يقول الشاعر محرضاً على الجهاد:

سيوف نضاها الله إذا حمس الوغى
ونادى منادي الدين للرمي والنضح
تواصل في جيش الضلال قراعها
فما برحت تشفي الصدور من البرح

تـلألأ في قطع من الليل مظلم
سناها فكان الليل أضوا من الصبح
فلا تأخذنكم في الغواة هوادة
وفلّوا جموع الشر بالضرب والطرح
لقد خوّضوا في الدين والعرض جهرة
ولجوا فعاد القرح ينكأ بالقرح
فليس بغير الكسر حسم لدائهم
وغير العصا، والجوز يؤكل بالشقح
وكل ذنوب العالمين مصيرها
إلى العفو إلا الشرك ممتنع الصفح
سينصركم من تنصرون كتابه
ويؤتكم الفتح القريب من الفتح

إن هذا المقطع - كما هو الشأن بالنسبة لأغلب القصائد - يحتمل مستويين من الفهم: المستوى الأول تبدو فيه الأبيات مباشرة وتقريرية، تفقد فيها اللغة الشعرية رموزها وإيحاءاتها، وتنحصر في مجال دلالي ضيق يحيل على معان محددة. أما المستوى الثاني من الفهم فإنه يتعامل مع النص باعتباره مجموعة من الإشارات والعلامات اللغوية التي ترمز إلى دلالات موغلة في اللحظة الحضارية المعيشة، فنجد أن الشاعر رغم اتكائه على أسلوب تبليغي خطابي مباشر، إلا أن الرؤية المشعة من الصور الشعرية تجعل المتلقي يلمس الأفكار والانفعالات والمواقف التي صدرت عن الشاعر، كما تجرفه الكلمات التحفيزية والصور التحفيزية المبثوثة

☆ الاهتمام بقضايا الأمة الإسلامية أضفى على الخطاب الشعري لدى شكيب أرسلان ظلالا من الصدق والحرارة..

في القصيدة، والتي تعكس الأمل في الجهاد الذي يراود الشاعر ويعتبره المخرج الوحيد من الأزمة التي تعيش فيها الأمة في ظل الاحتلال من جهة، وفي ظل الغواية والتخلف والتقليد التي تنخر في جسمها من جهة ثانية، لتتجانس الرؤية الثورية للواقع مع دلالة تجاوز هذا الواقع وتغييره إلى واقع أفضل يحلم به.

وانطلاقاً من هذا التحليل يمكن الحديث عن الجهاد في شعر شكيب أرسلان بوصفه رؤية ثورية، وبوصفه قيمة دلالية مولدة لمجموعة من الدلالات المختلفة، كما يمكن اعتباره مشروعاً قابلاً للتنفيذ لتغيير واقع الأمة وخلاصها.

وتعكس أغلب قصائد الديوان هذه الرؤية التي يتجاذبها قطبان: قطب الألم الذي ينشب أظافره في ذات الشاعر وهو يعايش واقع الأمة وحاضرها بالمقارنة مع ماضيها، لكنه لا يستسلم لقسرية الجدب في هذا القطب. وقطب الأمل الذي يجعل من التجربة الشعرية تعيش انفتاحاً مع الآتي، وتعتمد معجماً متفائلاً يجنح إلى التحليق التاريخي والتأملي الذي يدفع نحو التغيير ومصارعة قوى الظلم والشر والاستبداد والتخلف. يقول الشاعر:

فيا لك من يوم أتى في خطوبنا
كشادخة غراء في وجه أهيما
وكانت بقايا السيف تبكي فأصبحت
تضاحكهم طرا ملائكة السما
وما زالت الدنيا سرورا وغمة
وما زالت الأيام بؤسا وأنعما
عسى كل يوم بعد يوم «أدرْنة»[٢]
يعود على الإسلام عيدا وموسما
وليس على المولى عسير بأن ترى
هناء محا ذاك العزاء المقدما

☆ الشعر لدى شكيب أرسلان نار تحرق، ولكن إذا تخللها برد اليقين فإنها تضيء.

فهاته الأبيات يتجاذبها، بدورها، القطبان بين مد وجزر. لكن إيقاع الأمل يتغلب، فنحس بتلك الطاقة الشعورية التي تحاول دفع هواجس التشاؤم رغم الواقع المزري. واتكاء الشاعر على المطابقة والتقابل عمق ذلك التجاذب: تبكي/ تضاحك، سرور/ غمة...

وكثيراً ما يتكئ الشاعر في قصائده على التاريخ الإسلامي ليخلص ذاته من قبضة الألم، فينفتح على الماضي ليقف منه موقف وفاء وتقدير واعتزاز ليس من أجل اجتراره ولكن من أجل استلهام نماذجه وأخذ شرارة الأمل منها لتغيير الواقع والتطلع نحو المستقبل، لأنه يؤمن بعدم ثبوت الأحوال لقوله تعالى: ﴿وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾، وهذا المعنى القرآني نجده يتكرر في قصائده من مثل قوله:

فما زالت الأيام بؤساً وأنعما

وكما في قوله مخاطباً البارودي:

عسى لياليك قد سلت ضغينتها
وقد صفت كأسها من سُؤر أحقاد
واستأنف الدهر سلما لا يكدرها
فالدهر قد يرتدي حالات أضداد

لكن التغيير الذي يؤمن به الشاعر لن يصبح واقعاً حقيقياً إلا بتحقيق سنن الله الكونية، يقول:

فمن يرد الأيام بيضاً فلا يكن
جزوعاً لكرات الليالي بجونها

ومطلع هذه القصيدة يلقي ظلالاً عميقة على تجانس الرؤية الثورية ودلالة التغيير المشروطة بتحقيق السنن الكونية من أجل عزة الأمة وانتصارها:

فدىً لحمانا كل من يمنع الحمى
ومن ليس يرضى خوضه متهدما
فما العيش إلا أن نموت أعزة
وما الموت إلا أن نعيش ونسلما
تأملت في صرف الزمان فلم أجد
سوى الصارم البتار للسلم سُلما
ولم أر أنأى عن سلام من الذي
تأخر يعتد السلامة مغنما
يقولون وجه السيف أبيض دائماً
وما أبيض إلا وهو أحمر بالدما
فإن يك دفع الشر بالرأي حازما
فما زال دفع الشر بالشر أحزما
تجاهل أهل الغرب كل قضية
إذا لم يجئ فيها الحمامُ مترجما

إن استثارة المشاعر الجهادية الكامنة في المخاطبين وتكثيف الوعي بها يرتكز على وعي عميق بقضايا الأمة واستيعاب الواقع الحضاري بجزئياته وعمومياته استيعاباً عميقاً وموضوعياً، ينطلق من رؤية متبصرة رفع لواءها شكيب أرسلان، ليس في شعره فقط، وإنما في كل ما صدر عنه من كتابة ومواقف، فنادى بالجهاد حسب المفهوم الإسلامي في جميع مستوياته، الجهاد بحمل السلاح في قوله مثلاً:

فقلنا عليكم بالسيوف فإنها
لأفصح من أقلامنا برنينها
فإن يخفر الأعداء بيض عهودنا
فعند ذمام البيض ردع خؤونها

وجهاد النفس بتغييرها والدعوة إلى سرعة مواكبة الحضارة في قوله:

سراعا بني أمي بحث ظعونها
فما حرك الآلام غير سكونها

إن هيمنة هذه الرؤية في قصائد الديوان تجعل التجربة الشعرية عند شكيب أرسلان - رغم أنه يمدح ويرثي ويداعب ويتغزل - تتخلص من هيمنة الذات وإغراءات جذبها لتشحذ الرؤية، فيعاين الواقع

معاينة عميقة ونافذة، الأمر الذي يكشف عن تجربة تنبع من الذات الفردية وتتجاوزها إلى الذات الجماعية. ففي سياق الرثاء مثلاً وإن كان ينطلق من مشاعر ذاتية إلا أنه يركز على ما له علاقة بالذات الجماعية كما في قوله يرثي أحمد شوقي:

أحمد شوقي

قد كان أدرى الناس بالداء الذي
قد حط بالشرق عن صهواته
داء هو الأخلاق في اضمحلالها
فلذا ترى الأخلاق رأس وصاته

ويقول في رثاء الوطني المغربي عبدالسلام بنونة:

إنا فقدناك يا عبدالسلام لدن
كنت المرجى لأوطار وأوطان

إلى أن يقول:

كانت له في هوى الإسلام صارخة
الموت في سُبلها والعيش سيان

ويقول في رثاء أخيه:

ما كنت تعدو ولا تبغي على أحد
ولا تغير على عرض ولا مال
لم تعرف الكبر في قول ولا عمل
كلا ولا سرت يوماً سير مختال

فرغم أن الشاعر ينظم في سياق غرض معين هو الرثاء إلا أن هيمنة الذات الجماعية على نفسه تجعله يحاول ترسيخ بعض القيم الأخلاقية فيها من خلال عرضه لأخلاق المرثي، وكأنه يفتقد تلك الأخلاق في أفراد أمته، وهذه الهيمنة ناتجة عن النزعة الإصلاحية التي كانت تؤطر فكره بصفة عامة. كما أنها تدل على رؤية الشاعر التي تبلورت منذ فترة مبكرة من حياته لتنبئ عن معاناته لقضايا واقع الأمة الإسلامية من جهة، كما أنها تدل من جهة أخرى على غنى الرصيد الثقافي الذي عمق التجربة الشعرية عنده رغم سقوطه أحياناً في بعض التكرار والإطناب الذي لا يضيف أي بعد جديد للتجربة.

وتجانس رؤية الشاعر مع دلالة الجهاد أكسبتها نبرات القوة والثقة والتحدي، ولذلك لا نجد تلك الرخاوة الشجية والليونة المحببة التي تمليها تداعيات الذات وسرحاتها إلا في بعض القصائد القليلة التي يترك فيها مجال الفكر ومعاناة الواقع، ويحاول الشاعر فيها أن يسترد ذاته الفردية، ويعزلها نسبياً عن الواقع وقضايا الأمة المصيرية، الشيء الذي يمكن القول عنها: إنها بمثابة استراحة يسترد فيها أنفاسه لمواصلة الدعوة إلى الجهاد، وتغيير الواقع المزري الذي لا زلنا نرزح تحت وطأته إلى واقع مشرف يليق بحضارة الأمة العربية الإسلامية، لن تسترجعه إلا بتصدر قيمة الجهاد في غرة حياتها. ■

الهوامش:

١ - الديوان، ص ٢٣.

(٢) أدرنة: الجزء الأوربي من تركيا، وفيه إشارة إلى انتصار الأتراك على اليونان في الحرب العالمية الأولى، والذي تفاءل به المسلمون آنذاك.

ابتهال

شعر
محمد أحمد الصحبي
السعودية

يا من إليه المشتكى والمرجع ... عظمت ذنوبي والسنون تودعُ
لعبت بنا الدنيا على أهوائها ... ومضى يمنّينا الزمان ويسرعُ
إن لم نفز يا ربِّ منك بتوبة ... فلمن سواك قلوبنا تتضرعُ
إني ملأت القلب حبا غامرا ... لجلال وجهك صادقا يترعرعُ
فاغفر ذنوبي يا إلهي إنني ... ها قد أتيت بأدمعي أتوجعُ